الدكتور محمد مرتاض لـ «الأدب الإسلامي»

الإساءة إلى الدين في الأدب يعجل بنهاية الكاتب

أسرة المراتضة أسرة عريقة في تاريخ الجزائربجهادها العلمي والثقافي نحن - الجزائريين- على الأقل نحتفل بها لما قدمته للمدرسة الجزائرية والأدب الجزائري العربي.

من أبيهم الشيخ سيدي عبد القادر طيب الله ثراه، إلى أكبرهم علما وسنا الدكتور محمد عبد المالك مرتاض، ثم الدكتور محمد مرتاض، ثم د. عبدالجليل مرتاض كلها أسماء معروفة بالنحو والبلاغة والأدب وكثرة التأليف.

«الأدب الإسلامي» التقت الأديب الدكتور محمد مرتاض في هذا الحوار:

حوار : رشيدة بن ناصر
الجزائر

❖ كيف كانت بدايتكم الأدبية وأنتم في أول الطريق؟

من المتعارف عليه أن كل بداية تكون شاقة عسيرة، ويكون المرء - وهو يشق طريقه في عالم الكتابة نحو هدف معين لأول مرة - في حالة مخاض يستعصي عليه إدراك مبتغاه، ونيل وطره. وحتى لا أذهب بعيدا أؤكد أن استرجاع شريط الماضي من الصعوبة بمكان، لأن معظم الكتاب لا يدونون في مذكراتهم الأحداث الأولى التي حصلت لهم مع بواكيرهم ومحاولاتهم الأولى، معتبرين إياها مجرد تجريب عابر، وأقول « تجريب»، لأن بداية الكاتب الأولى شبيهة بما يفعله علماء الطبيعة حيث يسهرون الليالي، ويكررون مختلف التجارب التي يتوصلون إليها، حتى إذا اطمأنوا إلى دقة وحقيقة الاختراع كشفوا عنه للآخر.

والأديب يمر بهذه المراحل أيضا، لأنه يكون متهيبا شديد الحذر كلما حدثته نفسه وألحت عليه بالولوج إلى عالم الإبداع أو النقد، متوجسا خيفة من السخط الذي قد يقابل به عمله نتيجة لنقص فادح أو واضح في محاولته الأولى، وذلكم هو السر في أن كثيرا من الأدباء والكتاب الغربيين والعرب لم يعلنوا عن أسمائهم الحقيقية في أعمالهم الأولى: (محمد حسين هيكل مع «زينب»، تشارلز بيرو مع «حكايات للأطفال»... وهلم جرا...).

وأنا لم أكن بدعا ممن ذكرت، فقد كانت محاولتي الأولى شعرية، حيث نشرت بعض النصوص الشعرية (وأسميها شعرا تجوزا) في نشريات جيش التحرير إبان ثورة نوفمبر المباركة، كما كنت أكتب عن المعارك التي خضناها مع العدو، وبالموازاة مع ذلك كله، كنت أسجل في

كراسة بعض الخواطر التي عنَّت لي وأنا أتقلب على جمر الحرمان والشقاء بمعية أندادي من المجاهدين...، على أن هذا الذي كتبته لم يعد إلا ذكرى بالنسبة لي، ولن أسمح له بالخروج إلى النور، لأنه عمل مهزوز فنيا، وما هو إلا صدى لمرحلة من مراحل العمر لا أكثر.

وبعد ما وضعت الحرب أوزارها اتجهت إلى التعليم، وكانت الكتب المقررة نادرة، وكان باب الاجتهاد مفتوحا إزاء رجال التربية والتعليم، ولا سيما في الأقسام النهائية من الدراسة الابتدائية، وكان المعلمون يحاولون مسايرة الطرائق (البيداغوجية) الحديثة بالتجائهم إلى النص في استنباط القواعد النحوية والصرفية والإملائية، وكانوا ملزمين بوضع نموذجات إنشائية لتلامذتهم، ورحت أحاول الكتابة في هذا المجال، لكنني اصطدمت بقيود تمنعني من التحليق الحر في الفضاء، فالمستوى محدود، والتخصص الذي أتحرك ضمن مساحته يصب في قالب منطقي جاف، فكانت هذه النصوص قلما تخلو من المباشرة والتقريرية، على أن بعضها كان يشذ عن هذه القاعدة التي تتيح للموهبة أن تتفتق وتبرز بصورة أو بأخرى، وكنت أجد نفسي أكثر في الموضوعات التي تتعلق بالطبيعة وفي الجوانب الرومانسية بعامة، وجاءت لجنة من أجل ترسيمي برئاسة مفتش، فكان مما أسروا به أن أسلوب «جبران خليل جبران» يطبع هذه النصوص.. وابتسمت يومئذ ليس ابتسامة الرضا، ولكن، لأنني لم أكن أبدا أقلد هذا الأديب الكبير، وإنما كان ذلك مجرد مصادفة أو توارد خواطر لا أكثر!.

وبعدما دخلت الجامعة، ألفيت الفرصة سانحة للتعبير عن أحاسيسي بما كنت أكتبه لأساتذتي الأفاضل، ولا سيما الأديب الناقد الدكتور عبدالكريم الأشتر الذي يعد ذواقة عصره، وناقد زمانه، فقد كان كثيرا ما ينطبق عليه ما قيل في البحتري «أراد أن يشعر فغنى»، إذ إنه كان يجلس إلى مكتبه بمدرج جامعة وهران (كلية الآداب) ثم يروح ينثر اللآلئ والصدف مغموسة في باقة من الرياحين والأزاهير، يأخذك إليه على الرغم منك، ويشد سمعك نحوه، فلا تملك إلا أن تصغي إليه، وتقبل على محاضراته طوعا واقتناعا لا كرها أو إجبارا. واستضاءة

محمد مرتاض في سطور

- ولد في ١٨ شباط /فبراير ١٩٤١م في بلدة مسيردة بولاية تلمسان في الجزائر.
- حفظ القرآن الكريم وتلقى مبادئ العربية على يد والده الشيخ عبدالقادر.
- التحق بصفوف جيش التحرير الوطني في الثورة الجزائرية الكبرى ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره.
- عمل في التعليم العام والعالي أكثر من ثلاثين عاما.
- حصل على الإجازة باللغة العربية من جامعة وهران ١٩٧١م، ودبلوم الدراسات المعمقة ١٩٧٩م، والماجستير في الأدب العربي القديم ١٩٨٤م، وعلى دكتوراه الدولة في الأدب المغربي القديم من جامعة تلمسان ١٩٩٤ م.
- أشرف على أطروحات التخرج، والماجستير والدكتوراه في العديد من الجامعات الجزائرية.
- حصل على جوائز بالترتيب الأول في الرواية من جامعة قسنطينة وبالترتيب الثاني في القصة القصيرة في قسنطينة، وجامعة وهران، وفي النقد الأدبي من جامعة وهران.
- شارك في ملتقيات أدبية وثقافية وعلمية محلية وعربية.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- يعمل حاليا أستاذا بجامعة تلمسان.
- من مؤلفاته المطبوعة:
  - قصص قصيرة جزائرية ١٩٨٢.
  - النقيض (مجموعة قصصية) ١٩٨٤م.
  - ثمن الحرية (رواية) ١٩٨٤م.
  - الانتهازية (مسرحية) ١٩٨٦م.
  - من قضايا أدب الأطفال ١٩٩٤م.
  - الموضوعاتية في شعر الطفولة الجزائري ١٩٩٤م.
  - مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم ١٩٩٨م.

بتوجيهاته، ألغيت تلقائيا مرحلة ما قبل الجامعة، لأنني أدركت أن العمل الأدبي ليس عبثا أو تقليدا، وطوال فترة دراستي في الجامعة لم أكترث كثيرا لمحاولة الكتابة، بل أجهدت نفسي في القراءة والاطلاع، واستكشاف مسالك الإبداع المتعرجة المتخلخلة التي لا تعرف حدا.

وفي فترة قراءاتي المختلفة، كنت أقرأ كل ما يصل إلى يدي، فبدأت بروايات جورجي زيدان التاريخية، وبأعمال المنفلوطي، وبمعظم مؤلفات طه حسين ولا سيما (الأيام)،التي كنت أعيد قراءاتها في كل مرة مثلها مثل (دعاء الكروان) و (شجرة البؤس) و(حديث الأربعاء)...ومؤلفات توفيق الحكيم خصوصا (عصفور من الشرق)، وآثار جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة.... كما كنت أميل إلى حفظ القصائد الشعرية للشعراء الأفذاذ من أمثال المتنبي، وابن زيدون، وابن خفاجة، وزهير، وامرئ القيس، وحسان بن ثابت، وإيليا أبي ماضي، وشوقي، وخليل مطران، ومحمد العيد، ومفدي زكرياء.... وغيرهم.

ثم بعد تردد وتخوف معا، أخذت أكتب، فكان أول عمل كتبته عبارة عن قصة قصيرة بعنوان «زلة القدم» وكتبت بعدها بمدة مسرحيتين: « المغرورة»، و«الانتهازية»... ثم توقفت... وبعد نحو سنة من الراحة أو الفتور، شرعت أكتب بنوع من السهولة، فأنتجت زهاء عشرين قصة قصيرة في ظرف سنة واحدة، ثم تتابعت الأعمال الإبداعية ولا سيما في الرواية...، وما لا أنسى تسجيله بمرارة هنا، هو المعاناة مع الطباعة، ولو أن الأمور كانت تسير سيرا طبيعيا لما ظلت أعمالي وأعمال العشرات من أمثالي تركن إلى رفوف الخزائن، أو في دهاليز البيوت، وهو ما يعني أن معظم أعمالي ما تنفك مخطوطة حتى الآن: (روايتان، أربع مجاميع قصصية، دراسات أدبية ونقدية...، أطروحة جامعية...).

د. عبدالكريم الأشتر

جبران خليل جبران

❖ ما العلاقة بين سؤال الإبداع والدرس النقدي؟

إني أعد الإبداع والنقد دائما في علاقة جدلية، إنهما تياران يتموجان في نهر مائج، أو خطان متوازيان يسيران جنبا إلى جنب، وبالرغم من اعتراض المعترضين بأن حقل النقد قد يخصب إذا أمحلت أرض الإبداع والعكس، فإني أعتقد أن ثنائية الإبداع والنقد حتمية. ذلك أننا لا ننتظر أن يظهر ناقد كبير في مجال إبداع راكد هزيل، ولا يمكن أن يتطور الإبداع والنقد غائب، أجل هناك بعض الفلتات، ولكن الشاذ لا قياس عليه. لذا، فالأدب والنقد صنوان لشجرة واحدة تخضر وتثمر في بيئة طيبة المناخ، صالحة التربة، وإن كان الإبداع يتطور من الداخل، في حين أن النقد يحتاج إلى عوامل خارجية مضافا إليها العوامل الداخلية التي تسهم كلها في التطوير والتجديد..... ولولا البيئة الثقافية الخصبة لما تفجر فكر طه حسين، أو العقاد، أو ريتشاردز، أو هيمنغواي، أو حنا مينا، أو الشابي، وهلم جرا....

❖ كيف تقيمون الفترات الأدبية الجزائرية منذ السبعينات إلى الثمانينات إلى التسعينات، وصيحات الحداثة وغيرها؟

كثيرا ما يصاب المرء بحرج ويشعر بمضايقة حينما يدعى إلى تقويم الآخرين، لأن المقوم (بفتح الواو المشددة) قد يعد ذلك من قبيل التجني عليه، أو من باب محاربته، ولا سيما في العالم العربي حيث ألفنا أن نلمس المحاباة في معاملاتنا اليومية. فما بالك بتقويم الحركة الأدبية منذ السبعينات حتى التسعينات، ولذلك سأجيب بإيجاز، على اعتبار أن أخذ ذلك بصورة تفصيلية يحتاج إلى بحوث مستقلة لما يتطلبه من رصد لتلك الأعمال في إلمام شامل، وإدراك مفصل، وتسلح بأدوات نقدية تهتدي بضياء النظريات الحداثية، وتغرف من معايير الأصالة مع حتمية تطعيمها بالمعاصرة.

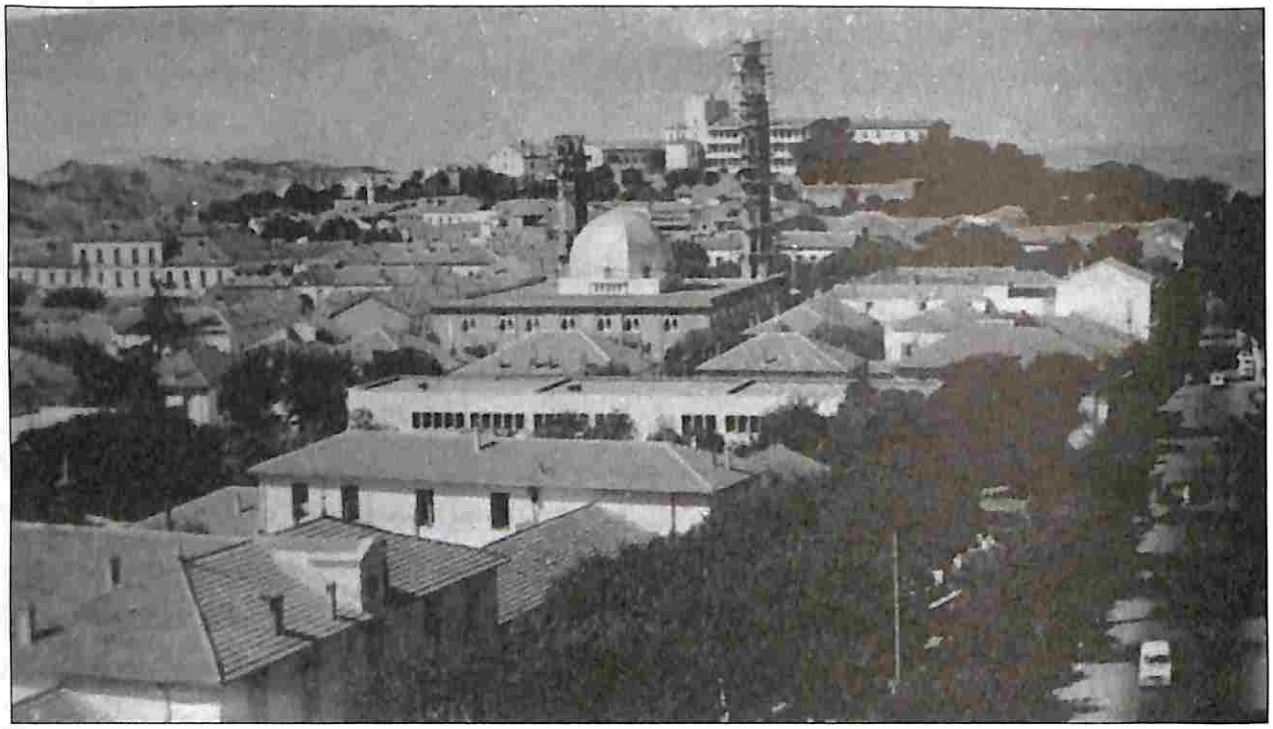

منظر عام من الجزائر

- **السبعينات:** فترة ولادة الراوية العربية الإيديولوجية في الجزائر: روايات الراحل ابن هدوقة، والطاهر وطار، وبدرجة أقل الرواية الثورية...

- **الثمانينات:** فترة الصحو والولادة معا، حيث صدرت نصوص روائية تجاوزت الستين، ومجاميع قصصية تجاوزت المئة،، ودراسات نقدية هز بعضها الأعمال الهشة. وقد ساعد على ازدهار هذه الحركة الدوريات التي أفسحت صدورها للإنتاج الجزائري والعربي، فاحتضنت مجلة «الثقافة» المأسوف عليها كل النتاج الأدبي، والدور الذي أدته للكتاب كان عظيما، من الجحود تجاهله. أضف إلى ذلك احتضان الشركة الوطنية للنشر والتوزيع طبع كثير من الأعمال، لأن هذه الدار - على ما وجه إليها من مطاعن- قد فتحت ذراعيها للكتاب، وطورت صناعة الكتاب بصورة أو بأخرى.

- **التسعينات:** هي مرحلة النشر في ديوان المطبوعات الجامعية الذي ظل صامدا إزاء أعاصير اقتصاد السوق.

والتسعينات يمكن أن نعدها من الفراغات التي مر بها الجزائر ثقافيا، لأن دور النشر التي كانت تخف لاستقبال الكاتب غدت تثّاقل في التعامل معه، وتشترط الربح على حساب نشر الثقافة وخدمة الكتاب. والدوريات التي كانت ببلادنا لم يعد لها وجود، والجسور الثقافية بيننا وبين العالم العربي قد نسفتها أياد خفية لئلا يحدث اتصال أو وصال.

ومع كل هذه المثبطات، فقد استطاعت الأقلام الجزائرية أن تبرز على مستوى العالم العربي بشكل مستقطب للنظر، ومعظمها بذل جهودا شخصية، و أوصل اسمه بطريقته الخاصة إلى الجهات الثقافية في شتى أنحاء العالم العربي.

وكتابات كثير من الجزائريين تعد من قبيل النموذجات القليلة التي يعتد بها في مجال الدراسات الحداثية.

❖ لماذا لم تفرز المنظومة العقلية الجزائرية النقدية نقادا على مستوى العالم العربي؟

ومن قال إن المنظومة العقلية الجزائرية عقمت إلى درجة أنها لم تلد نقادا كبارا؟ ربما يكون اطلاعك قليلا على ما أنتجه النقاد الجزائريون وأنت معذورة ألف مرة. فالأطروحات الجامعية في مجال النقد مكدسة في مكتبات الجامعات الجزائرية، وحتى تبادلها بين جامعة وأخرى لا وجود له، وهو ما يجعل الاطلاع عليها عسيرا والحكم عصيا. أما أن نطبع هذه الأعمال ليحكم لها المتلقي أو عليها فذلك دونه الأهوال والأغلال، وليس من قبيل التعصب أو الذاتية أن أقول: إن الدكتور عبدالملك مرتاض

يعد أحد أعمدة النقد في الجزائر وفي العالم العربي، مثله في ذلك مثل المرحوم الدكتور محمد مصايف الذي خلف آثارا نقدية هامة. ويمكن القول إن هناك مدرسة نقدية مزدهرة تديرها مجموعة من الباحثين من أمثال: مختار حبار، ومحمد عباس، وعكاشة شايف، ومحمد زمري، وعبدالقادر هني... وغيرهم.

الجامعة الجزائرية مثلها مثل بعض الجامعات العربية لا بد أن تنزل إلى مستوى الواقع وتعايش العصر

❖ ماذا عن مستوى الجامعة الجزائرية والمناهج فيها؟

إن الجامعة الجزائرية ما ينبغي لنا أن ننظر إليها بمعزل عن المجتمع الذي أفرزها؟ لأن الجامعة تزدهر حينما يكون هو مزدهرا في مختلف المجالات. ولذلك فإنها هي نفسها الآن مصابة بعطب لأنها تخرج أفواجا من الطلبة كل سنة قلما يبرز أحد منهم في مجال تخصصه، بسبب الإجحاف الذي يقذفه به مجتمعه، فهو مثلا يدرس نحو سبع سنوات في التحليل البيولوجي ويطير فرحا على أثر إعلان نتيجته وتفوقه، ولكنه يصاب بالإخفاق وبالإحباط النفسي حين يصطدم بالواقع المر المتمثل في عدم إيلاء هذاالتخصص أية أهمية، فينصرف عبوسا إلى علب التبغ يبيعها سجائر على أرصفة الشوارع وهو مطارد من كل جانب.

والأمر في كلية الآداب أدهى وأمر.. فأنى للإبداع أن يعرف تطورا؟ وأنى للفكر أن يحلق في فضاء رحب، ويحبل بالجديد المأمول؟!

فأنت ترى أن الجامعة سليمة، والمناهج ملائمة، ولكن العلة تكمن في أوبئة أخرى لا جرم من اجتثاثها وإبادتها حتى لا يستفحل أمرها، وتشتد مقاومتها، وعندئذ، سيتعذر على المجتمع استئصالها أو معالجتها.

❖ بعض المتابعين يجزم بأن حركة نقدية بوهران لا مثيل لها ببقية مناطق الجزائر وحتى بتلمسان مهد الحضارة والتاريخ؟

إن هذا الرأي كان وجيها منذ عدة سنوات تقريبا، أما الآن ، فإن الجامعات، سواسية في الركود الثقافي، وكأنها تحالفت مع بعضها بعضا وعقدت عهدا على ذلك. أجل، فقد كانت جامعة وهران بعراقتها ونوعية أساتذتها قد استطاعت أن تصدر مجلة نقدية تسلقت سلم العالمية، وهي بإمكانها أن تنافح المجلات المتخصصة في النقد المعاصر بما تشتمل عليه أبوابها من قضايا معاصرة لها أثر كبير على التنظيم النقدي الجزائري المعاصر، وأعني بها مجلة «تجليات الحداثة» التي صمدت حينا من الدهر، وغدت تصدر بانتظام تباعا. ثم... ثم لم نعد نسمع لها حسا ولا همسا. أما الجامعات الأخرى فهي على دراية بتقصيرها وقصورها، ولكنها لا تملك إلا أن تأمل وتتوقع أياما أسعد، وأزمنة أفضل، وفي انتظار ذلك اليوم الذي تنصف فيه الجامعة، وتعلو فيه الثقافة، نظل نترقب قلقين.

د. عبدالملك مرتاض

❖ ما هو المجتمع الأجدى في رأيكم بمعاينة الظاهرة الأدبية؟

إن أول ما أعلق به على هذا السؤال، هو أن الظاهرة لا تنطبق على الأدب، لأن إطلاق هذه الصف ينصرف في الغالب الأعم إلى الحالات التي تعتريها التغييرات وتبلورها التطورات، في حين أن الأدب هو أحد أسس مجتمع ما، وهو جزء من الثقافات الأخرى، لأن الأدب هو تاريخ وفلسفة وفن، ولا مرية في أن المجتمعات التي تخلو من هذه المقومات تكون في حضيض الحضارة الإنسانية، ويتعذر عليها الانتتار من غل تخلفها.

أما المجتمع الأجدى باحتضان أي نظرية أدبية فإنه ليس بالضرورة مجتمعا أخضر أو أحمر، وإن كنت لا أختلف مع من يقرر أن ذلك لا يحصل بين عشية وضحاها، وإنما

يمر بمراحل إفرازات وفترات مخاضات قبل أن يولد ويبرز للعالمين.

من هذا المنطلق يغدو عسيرا على المرء أن يقزّم نظرية أدبية ما، ولا أقول ظاهرة في مجتمع معين. لأن الأدب زئبق لا توقفه المخترعات، ولا تبيده القوانين والسلطات. فهو قد يزدهر في تربة سياسية واجتماعية مائجة. مع أن المفترض هو أن هذا الازدهار يحصل في المجتمعات المستقرة التي لا تعيش معاناة الإنسانية، ولا أزمات داخلية. ولكن الأدب يرفض المنطق.

استطاعت الأقلام الجزائرية خلال العقود الأخيرة أن تبرز على مستوى العالم العربي.

❖ قرأنا لكم قديما دراسة مطولة متسلسلة بجريدة «الجمهورية» حول رواية رشيد بوجدرة « ليليات امرأة آرق» لماذا الجنس بالذات يحمل لديه هاجسا متفوقا تهجميا على المعتقد والتراث؟

علينا أن نتفق أولا بأن للفن قواعد، وللكتابات الأدبية طرائق خاصة، والرواية أحد الأجناس الأدبية التي يميل إليها المتلقون كثيرا لما تمتاز به من عالم الخيال، ولما يطفح به موضوعها من عواطف إنسانية، ولما تشتمل عليه من تشويق وأحداث وشخصيات.

ويرحم الله الجاحظ الذي قال في نظريته النقدية الشهيرة:«المعاني مطروحة في قارعة الطريق...» فكيف يصاب حقل المعاني عند بعض الكتاب بالجدب والمحل فتعوزه الحلية الفنية فيحتمي بالجنس غارفا من ميوعته؟ و «ليليات امرأة آرق» لبوجدرة - مثلما أشرتم- شر ما يمثل ذلك، والدراسة التي نشرتها عبر صفحات الجرائد السيارة عنها لم أكن أبدا أريد من ورائها الإساءة إلى الروائي، ولكنها عبارة عن ضغط على الزر الأحمر لكيلا يغتر الناشئة من المبدعين في هذا الفن فيوظفوا بعض المفاهيم الجنسية الخاطئة التي تزدري المرأة وتكشف عن ولائجها، بله تركيبتها الفيزيولوجية !.

ومن الشائع المتداول أن النقاد ظلوا يعاملون الغزل الإباحي في الشعر بحذر، مع أنه لم يقل ما قالته الرواية. فكيف نكتب نحن اليوم مثل هذا الهراء الذي ترفضه المرأة، ويأباه المتلقي، ويعاقبه النقد، وتغض الطرف عن الاهتمام به المدارس والثانويات؟!

إن «بوجدرة» يزعم أنه حين يصطنع هذا الأسلوب إنما يريد به الترغيب عن الجنس لا الاهتمام به، مع أن الواقع يفند ذلك، لأنه وهو يصف تقاسيم الجسد بطريقة لا تختلف كثيرا عن أشرطة الإغواء في الخيّالات الخليعة لا يجعل المرسل إليه ينفر من تلك الأوصاف الصريحة مثلما يزعم، بل يثير فيه الغريزة الجنسية، ولا سيما أنه يحشر في كتاباته الحديث عن المساجد والأئمة والتراث بعامة، وهو بذلك يوجه طعنات بخناجر غربية مسمومة إلى الدين من طريق غير مباشر مجهرا بعداوته نحوه، وبنوع من السخرية حين يوظف شخصية الإمام أو المؤذن... وكأن الناس كلهم صلحاء ولم يشذ عنهم إلا الأئمة والمؤذنون، أو كأن النموذجات البشرية الساقطة أعوزته، فرام أن يوظف شخصيات الأئمة شر توظيف كي يضحك المنحرفين والفاسقين من الدين. وعمل مثل هذا يعجل بنهاية الكاتب قبل أن يحين حينه، ويبعد طائفة من القراء عنه لأسباب خاصة وعامة.

❖ علق على هذه الأسماء باختصار شديد؟

- عبدالملك مرتاض؟

عملاق من عمالقة الأدب والفكر في العالم العربي.

- عبدالحميد بواريو؟

يحاول التأسيس لنظرية الحكاية.

- عبدالحميد بن هدوقة؟

أدى دوره في وضع أرضية للرواية العربية الجزائرية.

- العنف الممارس على المثقف الجزائري؟

سحابة صيف، ولا بد أن تشرق الشمس عليه.

- التغريب؟

استرجاع لشخصيتنا، وانتصار لثوابت أمتنا، وطرد مستحق لضرة لغتنا. ■